

رثاء الحسين (ع) في شعر عبدالعظيم الربيعي (الآباداني)

حميد باقري دهبازر*

نصر الله شاملي**

الملخص

الشاعر الآباداني عبدالعظيم الربيعي من طائفة شعراء رثاء الحسين (ع) وهم لا يقرضون الشعر إلا لذكر مناقب أهل البيت (ع) التزاماً بما لديهم من الشعور الديني، فالبحث هذا يريد أن يُعرّف هذا الشاعر البارِع - حياته وآثاره - أولاً - وهو الذي لا يعرفه إلا نزرٌ من العرب الإيرانيين - ويُلقِي الضوء على أسلوبه في الرثاء الحسيني ثانياً. من أهم ما حصل عليه هذا البحث هو أن الربيعي اختار القصيدة العربية العمودية لقول الشعر خلافاً للتيار التجديدي الذي عاصره كما استحسّن قول الشعر والبيان عن الأفكار العابرة اللطيفة في قالب الرباعية التي تخصّصها الفرس لهذا الغرض. أما أسلوب الربيعي في القصائد فأسلوب جديد من حيث تقديم المعاني والأفكار فله دائماً بدايات ومطالع خلاصة لافتة للانتباه كما له الهيكل الشعري المنسق المطبوع بطابع المقابلة والحوار ونهايات مصبوغة بصبغة الدعاء والاستشفاع هذا ونراه في الرباعيات يُبدي استدلالات شعرية (نوع من حسن التعليل) تثبت عظمة الحسين (ع) ومجده بأسلوب المقابلة.

الكلمات الرئيسية: الشعر الملتزم، الرثاء، الإمام الحسين (ع)، عبدالعظيم الربيعي.

* دكتوراه اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان (الكاتب المسؤول) bagheridehbarez@gmail.com

** أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٠، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/٢

١. المقدمة

عبد العظيم الربيعي شاعر معاصر من منطقة «آبادان» الإيرانية، تلمذ على أيدي كبار علماء الشيعة وسرعان ما صار من عبقرالدين والأدب. خصّص شعره وأدبه بمدح أهل البيت (ع) ورثائهم وذكر مناقبهم، فهو من طائفة شعراء الشيعة الذين عاشوا وترعرعوا في بيئة النجف الأدبية.

يهدف هذا البحث أولاً إلى تبيان معالم أدبه وشعره الذي قلّمنا عني به الباحثون رغم ما لديه من عبقرية شعرية وجمالية أدبية، ويسعى ثانياً لو يُلقى الضوء على جوانب أدبية لشعره في رثاء الحسين (ع) معتمداً على ديوان شعره المختصّ بمدائح أهل البيت (ع)، الديوان الذي يحتوي على قصائد ورباعيات جلّها في رثاء الحسين (ع) وشهداء الطفّ الذين أFDوا بأنفسهم لله تعالى.

وفقاً لهذا المنطلق يتناول البحث معالم حياة الربيعي لكي يعرفه للقارئ عابراً إلى التعريف المختصر على الديوان ومن ثمّ يتطرق إلى الموضوع الرئيس فهو تبين ميزات الرثاء الحسيني في ديوانه.

اعتماداً على ما قام به الكاتب من البحث في الكتب والمجلّات فيمكن القول إنّه لا يوجد بحث علمي أكاديمي يتناول حياة الربيعي وشعره إلّا ما جاء به «حاسم عثمان مرغبي» في كتابه الأدب المعاصر العربي في إيران، والموضوع من هذا المنظور جديد لم يسبق إليه أحدٌ - والله أعلم -.

٢. الربيعي في سطور

هو عبد العظيم الربيعي شاعر إيراني من مواليد «قصبة النصار» بـ«آبادان»، ولد في اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجّة في سنة ١٣٢٣ هـ. ق وتلقّى علومه الابتدائية عند أبيه «الشيخ حسين الربيعي»؛ هاجر إلى النجف الأشرف سنة ١٣٤٢ حيث كان في التاسع عشر من عمره، (الربيعي، ١٤١٩: ١٩ - ٢٠) فتلمذ عند كبار العلماء مثل «السيد جعفر التبريزي» و«العلامة السيد باقر الزنجاني» و

حميد باقري دهباز و نصرالله شاملی ۳

ترك النجف وعاد إلى الوطن بعد أن نال إلى إجازات الاجتهاد من «الإمام السيد أبو الحسن الأصفهاني» و«العلامة الشيخ آقا ضياء الدين العراقي» و «آية الله السيد أبولقاسم الخوئي» سنة ۱۳۶۳ (المصدر نفسه: ۲۱).

عاد الربيعي إلى آبادان واشتغل بمداية الناس وإرشادهم إلى الحق ونشر أحكام الدين كما لم يغفل لحظة عن رثاء الحسين (ع) وذكر مصائبه في قالب الشعر العربي وقدم أشعاراً في الرثاء تحترق القلوب والأفئدة عند سماعها؛ وأخيراً لبى نداء ربّه سنة ۱۳۹۹ بعد أن عاش عيش الزهد والفلاح والتركية (مرغي، ۱۴۱۴: ۱۹۸).

خلف الربيعي آثاراً متنوّعة لنا بعضها مطبوعة وبعضها لا يزال مخطوطة، أمّا المطبوعة فيمكن الإشارة أولاً إلى ديوان الربيعي وهو موضوع بحثنا هذا ويشمل على مرثي أهل البيت (ع) وخاصة الإمام الحسين (ع) في ۶۱ قصيدة و ۸ موشحات و ۵۶۳ رباعياً. أما الكتاب الثاني فهو كتاب سياسة الحسين (ع) الذي كتب دفعاً لشبهات طرحها المخالفون في حياة الحسين (ع) سنة ۱۳۷۸هـ.ق (الربيعي، ۱۳۷۸: ۳).

للربيعي كتاب آخر سعى فيه وراء دفع الشبهات المطروحة حول الإمام الرضا (ع) فهو كتاب وفاة الرضا الذي يروي فيه المؤلف حياة الإمام حتى الوفاة ويزيل بعض الشبهات (الربيعي، ۱۴۲۰: ۴).

له كتب أخرى من أهمها كتاب الفرقة الوسطي المكتوب سنة ۱۳۹۲هـ.ق، يتحدث الربيعي فيه عن الخلافات بين الإخباريين والأصوليين ويسعى إلى تقديم حلّ لهذه الخلافات (الربيعي، ۱۳۹۳: ۳-۸).

كما له ديوان الربيعي باللغة الدارجة، فهو ديوان له آخر في رثاء الحسين (ع) وأهل البيت (ع) باللغة الشعبية الدارجة في العراق وخوزستان (الربيعي، ۱۳۹۰: مقدمة الديوان).

للربيعي كتاب نحوي سُمي بألفية الربيعي، طبع هذا الكتاب في النجف الأعزّ في الصرف والنحو يبلغ عدد أبياته ۱۳۶۹ بيتاً في أوزان وقوافي متعدّدة (المصدر نفسه: ۳-۵).

وأما المخطوطة فمن أهمها الحواشي والتعليقات على كتب السطوح وكتب في اللغة و التاريخ (الربيعي، ۱۴۱۹: ۲۳).

٣. التعريف بالديوان

يحتوي ديوان الربيعي على مجموعة ضخمة من المراثي والمدائح في الأئمة المعصومين وخاصة الإمام علي (ع) والإمام حسين (ع) فترتيب الديوان على الشكل التالي:

— المواليد؛ يبدأ الربيعي الديوان بذكر مواليد أهل البيت (ع) وتأتي قصيدة ميلاد الإمام علي (ع) على رأس الديوان وتتبعه قصيدة ميلاد فاطمة الزهراء وكذلك ميلاد السبطين (ع) ويختتم هذا القسم بموشحة غراء في ميلاد صاحب العصر والزمان المهدي (عج):

شهر شعبان عظيم في الشهور يا إله العرش زده عظما
ليلة النصف بدا سر الإله صاحب الأمر ختام الأوصياء
مشبهها ميلاده حد علاه أحمد الهادي ختام الأنبياء

(المصدر نفسه: ٧١)

— العلويات؛ تأتي العلويات في القسم الثاني من الديوان والربيعي يقدم قصائد وموشحات جمالية في مدح وصي النبي الإمام علي (ع):

بدري الحد مورده دري الثغر منضده
خمرى الريق معسله هو مصدر شوقي مورده
هو رب الحسن ومفرده وقبيل العشق يوحد

(المصدر نفسه: ٨٩)

— مراثي المعصومين؛ فهذا القسم من الديوان يحتوي على قصائد في رثاء الإمام علي وفاطمة الزهراء والإمام الحسن والإمام الحسين والإمام الرضا (ع) ومثلاً يقول في رثاء الإمام علي بن موسى الرضا (ع):

قضى بدر هذا الكون فالكون وضج له بالتوح شرقاً ومغرباً
فهل علمت طوس فلله درها بأن بها نجم النبي مغيباً

(المصدر نفسه: ١٢٨)

— الحسينيات؛ كما هو الظاهر من العنوان فهذا القسم يختص برثاء الحسين (ع) فهو ما يحتل قسماً كبيراً من الديوان.

حميد باقري دهباز و نصرالله شاملي ٥

- الهاشميات؛ يمدح الربيعي في هذا القسم أصحاب الحسين (ع) مثل مسلم بن عقيل (ع) وأبي الفضل العباس (ع) وعلي الأكبر (ع) والقاسم بن حسن (ع)، فهذا مطلع قصيدة العباس (ع):

لم يحل في ناظري كالدَّمع والأرقِ لأنَّ فرطَ البُكا والوجدِ من خُلقي
حاربتُ لذةَ أيامي ومهجتها لأنَّ بيعةَ يومِ الطَّفِّ في عُنقي

(المصدر نفسه: ١٧٧)

- الزينيات؛ هي ثلاث قصائد في مدح عقيلة بني هاشم وبطلة كربلاء زينب (ع) يتكلم الشاعر فيها عن دور زينب (س) الهام في حوادث كربلاء وما بعدها كما يمدح ما عندها من الشجاعة الهاشمية. يقول الربيعي في إحداها:

هذه زينبٌ حفيدة طه أعظم الناس عن أخيها جهادا
وسموه بزعمهم خارجيا وهي لولا جهاده المرُّ كادا!

(المصدر نفسه: ١٩١)

- استنهاض الحجّة؛ قصائد في رثاء الحسين والأئمة المعصومين يخاطب فيها الشاعر المهدي (عج) ويسأل منه العون كما يدعو لظهوره:

لبيك قائم بيت الوحي نائراً لبيك هادي البرايا، جامع الكلم
هذي قلوب مواليكم مبايعةً قبل الأُكُفِّ، على اسم الله فلتقيم

(المصدر نفسه: ١٩٩)

- الرباعيات الحسينية؛ مجموعة من ١٩٩ الرباعي في رثاء الحسين (ع)؛
- مواعظ وحكم؛ مجموعة في الوعظ والحكمة المشوبة برثاء الحسين (ع)؛
- فضل العلم وأهله؛ الإشادة بالعلم والفضل وأهل الفضل؛
- الرباعيات؛ مجموعة من ٤٤٤ الرباعي التي جلّها في الدعاء والمناجاة وأخيراً قسم في التواريخ الذي يثبت فيه الشاعر تواريخ هامة.

٤. الربيعي ورثاء الحسين

ينقسم شعرُ الربيعي في رثاء الحسين (ع) إلى قسمين، القصائد والرباعيات، وهو تارة ييكي على الحسين في القصيدة وتارة أخرى ييكي عليه في رباعياته التي اتّسمت بطابع الرباعي الفارسي؛ فتتطرق إلى بيان ما في هذه المراثي من الميزات.

١.٤ القصائد

مع أنّ عدد قصائده الحسينية يبلغ ٣٢ قصيدة ولكنّ الأسلوب المهيمن على هذه القصائد أسلوب واحد يسعى البحث هنا أن يبيّنه ويميّزه. هذا ونرى قصائده الرثائية إمّا مستقلة للرثاء وإمّا مطبوعة بطابع الوعظ والحكمة والإرشاد ففي النوع الأول يسعى الشاعر أن يصف مدى مظلومية الحسين (ع) وأصحابه في كربلاء لكن في لغة فخريّة حماسية توحى عزة الحسين (ع) وعدم قبوله للدّلّ فلننظر كيف يصفه وأصحابه كأنّهم الأسد في معركة القتال:

شهيّد الحقّ والخلقُ المَعْلَى	فَدَثَّكَ النفسُ من بَطْلِ شهيدٍ
له أيامه البيضُ شهودٌ	ويومُ الطفِّ من بعضِ الشهودِ
عَشِيَّةٌ أَحَدَقَتْ فِيهِ رجالٌ	كما حَفَّ الغُضنْفُ بالأَسودِ
لقد مَخَضَ الوجودُ له فكانوا	هم الصفوُ اللَّباب من الوجودِ

(المصدر نفسه: ١٥٨)

أمّا الربيعي في النوع الثاني من قصائده الحسينية فيمزج الرثاء بالكثير من المعاني الوعظية والحكمية فغالباً يتحدّث عن عدم خلود الدنيا ويحضّ الناس على أعمال تدخلهم الجنّة لا الجحيم ويذكر أمثولة للعمل الصالح وهو الحسين (ع) وأصحابه في الطّف الذين هم في أعلى درجات الجنة:

هم درجاتٌ عند ربِّك، خيرُهم	كرامٌ عن الإسلامِ في الطفِّ جاهدوا
وذاذوا عن الدين الحنيفيّ جُهدهم	ولكن عيون الحادثات حواسد
أقاموا ملوكاً للمعالي بكربلا	ومن رمّلها تُثنى إليهم وسائدُ

(المصدر نفسه: ٢٣٦)

۱.۱.۴ أسلوبه في القصائد

الطريف عند الربيعي أنه أطلق لفظ «الحسينيات» على قصائده الرثائية التي قالها في الحسين (ع) وسمي كل واحد من قصائده «في رثاء الحسين (ع)» حباً له ولجده، بعبارة أخرى أن عنوان كل واحد من القصائد هو «في رثاء الحسين (ع)».

أما للربيعي أسلوب خاص في قصائده الحسينية وكما مرّ سابقاً له قصائد مختصة لرثاء الحسين وقصائد مشوبة بأنواع الوعظ والحكمة، فبيّن البحث أسلوبه في بدايات القصائد ونهاياتها وما هو الهيكل الرئيس للشعر.

البداية: غالباً يبدأ الربيعي قصيدته بأسلوب إنشائي يُبني عن مدى تحسره على ما حدث بكربلاء وهذا الإنشاء إما من نوع الاستفهام فمثلاً يطرح سؤالاً ويوجهه إلى ظلمي كربلاء ويسألهم عن كيف أنهم رضوا بهذه المظالم العظيمة وهذا دأبه في مطالعه:

أمنتَ مكرَ الواحدِ الديانِ فعصيته بالسرِّ والإعلانِ
وزعمت أنك طامعٌ في قربه لاتقبلُ الدعوى بلا برهانٍ
هلاً فكرتَ بأيِّ وجهٍ في غدٍ تلقاه معتذراً بأيِّ لسانٍ؟

(المصدر نفسه: ۱۵۴)

ويتعجب الشاعر من كيف أن الذين اغتصبوا حق أهل البيت (ع) يطمعون في قربة الله ويسأل منهم بما يعتدّون يوم الحشر وهم يقتلون الحسين (ع)؛ أو في قصيدة له أخرى يخاطب الشمس ويسأله عن هل هي مشرقة بسبب تجلّي حقائق كربلاء الناصعة في استفهام تقريرية:

أشمسُ الضّحى أشرقَتْ طالعه فأبصرتُ أنوارها لامعه
أم الطفُّ بالقلبِ شاهدتَ إذ تجلّت حقيقتها ناصعه؟

(المصدر نفسه: ۱۳۵)

والمعلوم معاني التعجب والتقرير والتحسر التي تتجلّى في هذه الاستفهامات (التفتازاني، ۱۴۲۸: ۲۰۴)؛ وأحياناً يسأل الشخصية المتجرّدة من نفسها ويبدأ القصيدة بمخاطبتها (الربيعي، ۱۴۱۹: ۱۳۷):

أرأيتَ ركبَ الخيلِ كيف يساقُ أرأيتَ دمعَ العينِ كيف يراقُ
قالوا اصطبرُ فأجبتهم تكليفُ ما لايسْتَطاعُ لوالهٍ ويطاقُ
عن مقلتي غابوا وفغاب رقادها فكأنهم لنواظري أحداقُ

أمّا الأسلوب الإنشائي الثاني الأكثر استعمالاً في بدايات قصائد الربيعي فهو أسلوب الأمر الذي غالباً يسعى الشاعر من ورائه أن يرافق المخاطب أو ما يسمع كلامه مع نفسه للبكاء على شهداء كربلاء الظالمين:

حيّ بالحزن والدموع السّجام كربلا واندب الشهيد الظامي
حلّ في ربعها الحلالِ ولكن حلّ في كلّ راحةٍ في حرامٍ
إيه يا قلبه الزكيّ الذي ما ما زال للعطف موضعاً والسلامِ
كيف أصبحتَ في الطُوفِ محلاً للرّزايا وللخطوب الجسامِ؟

(المصدر نفسه: ١٤١)

والواضح أنّ الشاعر يطلب من كربلاء أن يبكي على الشهيد الظالم فهو الحسين (ع) وهذا الأسلوب الأمري يتكرّر أربعة مرّات أخرى وسرعان ما يتّصل بالاستفهام في البيت الرابع، الاستفهام بـ«كيف» الذي يخرج من معناه الأصلي إلى معنى التحسّر والتعجب. فبدايات الربيعي كلّها جذابة موحية ممهّدة للمعاني المطوّية في القصيدة وهي استهلالات جيّدة وعناوين محتبّة تلفت نظر القارئ ويدعوه إلى أن يستمرّ قراءة القصيدة حتى النهاية.

الهيكل الشعري: يمكن الإشارة إلى ميزات هيكله الشعري فيما يلي:

الموسيقى الملائمة للرثاء: من الميزات البارزة في رثاء الربيعي هي العناية الفائقة بتناسب الموسيقى مع موضوع الرثاء؛ فهذه المسألة تتجلّى في اختيار الأوزان الثقيلة أوّلاً والقوافي ذات الرّنة الحزينة ثانياً وتلاؤم موسيقى الألفاظ للمعاني الرثائية.

فمن أكثر البحور الشعرية استعمالاً في شعره يمكن الإشارة إلى «الكامل»، «الخفيف»، «الوافر» و«الرملي» (مرغي، ١٤١٤: ١٩٤) والعروضيون يعتبرون هذه البحور من البحور الثقيلة التي تناسب موضوعات جدّية كالممدح والرثاء (هوميرس، د.ت: ٨٤؛ وحيدان كاميار، ١٣٧٤: ٧٣).

حميد باقري دهباز و نصرالله شاملی ٩

أما حروف الروي في قصائد الربيعي وأكثرها إما من الحروف اللينة المهموسة كـ«م» و«ف» وإما من الحروف المجهورة التي من صفتها الانفجار والاحتكاك (كمال الدين، ١٩٩٩: ٤٩) ولكن لكي تقل من هذه الحدة تتبعها حروف وصل لين، كـ«ع» و«ق» وما بعده «ه».

وهكذا الحال في الموسيقى الداخلية التي تتجلى في تنسيق الألفاظ والصنائع البديعة (شفيعي كدكي، ١٣٧٠: ٢٩٨ - ٢٩٩) وتختلف باختلاف مقام الشعر، فإذا يفتخر الشاعر بالإمام الحسين (ع) وما أبدى من الشجاعة والغيرة في سبيل الله فالموسيقى شديدة حماسية وإذا يذكر مظلوميتهم فيثقل الموسيقى ويكي بها:

لك فضل عزّ قدراً ومقاماً	وُجارٌ في البرايا لأيسامى
أثرى قلبي يهنيه الروى	وحسينٌ في العرى يقضى أواما
ونساء تتعادي كالقِطَا	مُدَّ عليها أحرَقَ القومُ الحِنِيا

(الربيعي، ١٤١٩: ١٤٣)

الجدير بالذكر أن الربيعي قد عارض بعض القصائد المشهورة في الأدب العربي وتجلّى هذه المعارضة والمحاكاة طبعاً في الوزن والبحر والقافية. ومن أهم قصائد حاكها الربيعي هي قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير:

بانت سعادٌ وقلبي اليوم متبولٌ	متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ
-------------------------------	-----------------------------

(كعب بن زهير، ٢٠٠٨: ١٢٣)

والربيعي يقول محاكاة لقصيده كعب:

المجدُّ عند حُدودِ البيضِ مكفولٌ	ولا يتمُّ لربِّ الجُبنِ مأمولٌ
وإنما شرف الإنسان يرفعه	وما على شرف الآباء تعويلٌ

(الربيعي، ١٤١٩: ١٥٠)

وتتجلّى المحاكاة في الناحية الموسيقية من حيث الوزن والقافية. أما القصيدة الثانية التي اختارها الربيعي للمحاكاة فهي قصيدة «بردة» للبوصيري التي مطلعها:

١٠ رثاء الحسين (ع) في شعر عبدالعظيم الربيعي (الآباداني)

أمن تذكر حيرانٍ بذي سَلَمٍ مزجتَ دَمْعاً جرى من مُقَلَّةٍ بدمٍ

(البوصيري، د.ت: ٩)

ونشاهد أحياناً قصائد يجمع فيها الشاعر بين الرثاء الحسيني والبشارة المهدوية على سبيل الافتنان والإدماج:

أصوتُ حريلاً ذا عن نُعْرٍ مبتسمٍ مبشراً بظهور النَّورِ في الحرمِ
يدعو بنا شيعَةَ الأبرارِ حَيَّهلاً لبيعة الحقِّ عن قربٍ وعن أَمَمٍ

(الربيعي، ١٤١٩: ١٩٩)

كثرة التشابيه والإستعارات: فالشاعر يستفيد من أنواع التشابيه والإستعارات الجميلة

منها بديعة ومنها تقليدية، والقارئ يحبّ البديعة منها ويستحسن التقليدية:

وجاءت الكوفةُ في خيلها كتباً وفي أحنادها أحرفا
عجلُ فإنَّ الدينَ قد كَوَّرت ذُكاه والإسلامُ رسمٌ عفا
وعادت الكعبة حتى اللقا ترفلُ في حِدادِها مطرفاً

وتشبيه الخيول بالكتب والجنود بالأحرف تشبيه جميل، والجنود حروف مكتوبة في كتب الخيل وهذا التشبيه يني عن مدى كثرة الجيوش بحيث كانت كالحروف. أمّا التشبيه الثاني فهو تشبيه شرائع دين الإسلام برسوم ديار قد عَفَتْ بسبب ما أبدعته حكومة بني أمية من الانحراف في الدين فهذا كله من تشابيه مبدعة حديثة (المصدر نفسه: ١٣٤):

هذي أميةٌ لاقواعدٍ يعرُبُ ترعى ولا تخشى أُمِّي معادُها

وكثيراً ما نراه يبدأ عدّة أبيات متتالية بـ«كأن» منبياً من البداية أن كل بيت يحتوي

على تشبيه جميل:

كأنَّ لهم دَمَ الأعداءِ كأسُ ومن هاماتهم طافَ الحُبابُ
كأنَّ رؤوسَهُم عِشاقُ سُمرٍ تمايلُ إذ تَميسُ بما الحِرابُ
كأنَّ عليهمُ للخيلِ وتراً غداة الرُّوعِ إذ حدَّ الضرابُ

(المصدر نفسه: ١٦١)

وأحياناً يأتي بتشابهه توحى بوضوح تشبيهات معروفة في الأدب العربي مثل:

ألفى نفوساً أينعت ورؤوسها قد أحصدت فحبا الحسام حصادها

(المصدر نفسه: ١٣٣)

وتشبيه النفوس بثمار يانعة (وأيضاً الرؤوس بحصاد) وحذف الثمار والإيتاء بما يلزم المشبه به وهو «أينعت» على سبيل الاستعارة المكنية ليس تشبيهاً واستعارةً حديثة إنما هو من صنع «الحجاج بن يوسف الثقفي» في خطبته المشهورة بمسجد الكوفة، والتشبيه التالي بالنسبة للإمام الحسين (ع) والشاعر يصف الرؤوس المرفوعة على الرماح أمام عيون زينب عقيلة العرب (ع):

ورؤوسُ أسرتها تضيء أمامها إن الكواكب شأها الإشراق
ما بينها رأس الحسين كأنه قمرٌ ولكن ما اعتراه محاق

(المصدر نفسه: ١٣٨)

كثرة المقابلة: مع أن المقابلة هي من أنواع الصناعات البديعية المعنوية (المهاشمي، ١٤٢٥: ٢٩٩) ولكنها حقيقة نوع من البيان أو طرق إيفاء المعاني المختلفة، مهما يكن من أمر فإنها من أهم ما يعتمد عليه الربيعي في تبيان موضوعاته الشعرية، فالشاعر دائماً يوازن بين خير وريح يحصل عليهما الحسين (ع) ومن أتبعه وشر وخسران بقيا ليزيد ومن ذهب مذهبه:

هذا حسينٌ في الجنان منعماً هذا يزيدٌ في الجحيم يُعذبُ
التبل في جنب الحسين بأسره لكن على أعدائه متجنبُ
ترجي كتائبَ بغيهم وجنودهم وعلى الهدى تلك الجنود تكذبُ

(المصدر نفسه: ١٦٤)

وهذا الأسلوب أخذه من القرآن حيث كثيراً نراه يقارن بين الفئتين في أشياء متضادة تأتي ببعضها في مقابل البعض الآخر:

«فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى، وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل: ٥-١٠)؛ فهذا أسلوب قرآني تنبّه إليه الربيعي واستفاد منه ما استفاد.

النهاية: مثلما رأينا عند بدايات الربيعي من ابتداء القصائد بأسلوب إنشائي، فهو في

١٢ رثاء الحسين (ع) في شعر عبدالعظيم الربيعي (الآبادي)

لهأياته أيضاً يميل إلى أساليب الإنشاء، كالدعاء والتّمني وأنواع الطلب والاستفهام، ولكنّ الأمر يختلف في أنّ الربيعي في البدايات يتحسّر ويتعجّب ولكنّ في النهايات يدعو لظهور الحجة (عج) ويستشفعه وآبائه المعصومين (ع) ويرجو أن يغفره الله أحياناً ويلعن بني أمية الغاصبين ويؤاخذهم بما جنوا أحياناً أخرى:

وبالحسن العسكريّ الزكيّ وبالحجة الخلف القائم
أجنيّ أعفُ عني أغثني أفضُ على العبد من فيضك الدائم

(الربيعي، ١٤١٩: ١٥٠)

أو في قصيدة أخرى يبيّن قصده من هذه المراثي ويقول إنّه يقتني كعب بن زهير في المدح لأنّ قصيدته قبلت من جانب النبي فيرجو الربيعي أن تقبل قصائده:

تفوّلاً بقبول عمّها وعسى أن كلّ ما أشبه المقبول مقبولُ
ولا يزال عليكم - سادتي - ولكم من المهيمن تسليمٌ وتجيلُ

(المصدر نفسه: ١٥٤)

أمّا في بني أمية فيقول مثلاً وهو يصف أسرى آل الرسول (ع) في الطريق إلى الشام:

أثحرمُ في المسير لها مقبلاً وثحرم في السرى طيب المهجود؟
لقد بؤتم بها عاراً وناراً لهذي الدار أو دار الخلود!

(المصدر نفسه: ١٥٨)

الجدير بالذكر مماثلة طريفة بين بعض أبيات الربيعي مع كبار شعراء رثاء الحسين (ع) كالعلامة بجر العلوم، فلبحر العلوم أسلوب يبدأ أبياته بعبارة التكبير «الله أكبر»:

الله أكبرُ ماذا الحادثُ الجللُ لقد تزلزل سهل الأرض والجبلُ

(بجر العلوم، ١٣٧٦: ٥٩)

والربيعي أيضاً استفاد من هذه العبارة عدة مرّات منها:

الله أكبرُ خيل الشرك قد طُجنّت صدر الحسين وفيه الوحي قد طُحنا

(الربيعي، ١٤١٩: ١٤٨)

والقصيدة عند الربيعي ذات أركان أساسية وهو دائما يراعي هذه الأركان ويسعى لو يظهر أسلوبه الأدبي الخاص فيها، فبداياته الإستهلالية تحتوي على أساليب إنشائية مثل الاستفهام وخاصة الإنكاريّ منها وهيكل قصائده تنطوي على العديد من التشبيهات والإستعارات الجديدة أو التقليدية الممزوجة بنوع من الحداثة كما يستفيد من أسلوب المقابلة القرآنية. هذا ويسعى الربيعي في نهاياته أن يؤكد على الجانب الإنشائي من الأساليب مرة أخرى كي يسجّل ما قاله في ذهن المخاطب.

٢.٤ الرباعيات الحسينية

أمّا رباعيات الربيعي الرثائية فُتحتسب من أجمل شعره، فالرباعي هو فن شعري يختلف في نشأته وتسميته وتطوّره النقاد والأدباء والبعض يذهب إلى أنّه فنّ اخترعه الفرس في القرن الرابع حيث أنشد الرودكي السمرقندي بصفته «أب الشعر الفارسي» أبياتاً في هذا الفن (قيس رازي، ١٣٦٠: ١١٢-١١٣) والبعض الآخر ادّعوا أنّ هذا الفنّ كان موجوداً منذ قرنين قبل الرودكي في زمن «يعقوب الليث» الأمير الصفاري بسيستان (دولت‌شاهي نقلاً عن شميسا، ١٣٦٣: ٢٤) كما يرى البعض أنّه كان نوعاً من الشعر الشعبي اخترعه الصوفيون الفرس بالخانقاهات (المصدر نفسه) فأخذ الشعراء الفرس عنهم وعرضه على البحور الشعرية فألبسه لباسه الحاضر (مير افضل، ١٣٧٦: ١٨)، مهما يكن من أمر فإنّه فنّ فارسي أخذه العرب من الفرس (موسى باشا، د.ت: ٩١٠)، فهذا الفنّ له أنواع، الكامل الذي تكون شطوره الأربعة على روي واحد والأعرج الذي يختلف روي ثالث الشطور عن الأخرى وهو يناسب لبيان أفكار عابرة فلسفية لطيفة محدودة (البكار، ٢٠٠١: ٨٠) والفكرة الرئيسة تنطوي في الشطر الأخير، والطريف هو يضاهي نوعاً من الشعر الحرّ الذي شاع في زمننا الحاضر باسم «الهايكو» اليابانية.

أمّا الربيعي فأخذ هذا الفنّ للرثاء ولبیان الأفكار المحدودة التي تنشعب من روحه الميالة إلى فضائل أهل البيت (ع) فلعلّ عمله هذا فيه نوع من التجديد والبدعة الجميلة:

من ذا يهنّي سيد الشهداء بفعال شبه أبيه في الأعداء

ظهر الوصيّ بشخصه متمثلاً ما أشبه الأبناء بالآباء

(المصدر نفسه: ٢١٥)

والربيعي يتعرّف على ظرائف الرباعي ومثلاً يمدح علياً الأكبر (ع) في أنه شبيه في هيبته وخصاله بجده على (ع) ويحتم الشعر بـ«ما أشبه الأبناء بالآباء» ليمتّ الرباعية بالفكرة الرئيسة المطوية في الشطر الرابع؛ أو يقول:

سيد المرتضى بناءً الشريعة وحسينٌ باني كيانِ الشيعة
بشقيقتين في ذرى الخلدِ طارا بجناحين والأكفّ قطيعه

(المصدر نفسه)

إذا دققنا في رباعيات الربيعي الحسينية التي يبلغ عددها ١٩٩ رباعياً فيمكن تقسيمها إلى قسمين هامّين هما رباعيات في رثاء الحسين (ع) ورباعيات في بيان عزّة الحسين (ع).

١.٢.٤ الرباعيات في رثاء الحسين (ع)

الأسلوب الذي يتبعه الربيعي في رباعياته الرثائية هو نفس الأسلوب التقابلي الذي يتبعه في قصائده ومع أنّ الرباعي مجاله ضيق ولكنّ الربيعي باهرٌ في بيان المعنى في هذا المجال حيث يضيف إلى أسلوبه التقابلي نوعاً من أنواع البديع وهو مرّة يقابل بين الحسين (ع) ويحيى بن زيد في ما أصيبا من المصائب وينتج أنّ المصائب لا تقاس ويشكل الجنس بين المشاكل والمشاكل:

ما بين يحيى والحسين تشاكلُ فتنظنّ يحيى للحسينِ مُشاكلا
كلّا، فمن ينظرُ حديثهما يجد أنّ الحسينَ أجلّ منه مُشاكلا!

(المصدر نفسه: ٢١٢)

ونظراً إلى ما مرّ من رغبة الربيعي إلى المقابلة الممزوجة بالجناس فنضرب مثلاً آخر:

أتظنّ أن قتلَ الحسينِ يزيدُ كلاً، لعمرك والألهُ شهيدُ
هذا يزيدُ بعاره وبناره يَحزى، وذا شرفُ الحسينِ يزيدُ!

(المصدر نفسه: ٢٢٥)

حميد باقري دهباز و نصرالله شاملي ١٥

ومرّة يقارن بين شهداء «بدر» وشهداء «كربلاء» على سبيل الجمع والتفريق وينتج أنّ مصائب شهداء كربلاء أشدّ وأضرّ:

شهداء بدرٍ والطفوفِ كلاهما لهمُ لدى الله المقام الأرفع
واختصّ فتية كربلاء بمصائبٍ وأضرّها العطشُ الذي لا يُنقَعُ

(المصدر نفسه: ٢١٥)

كما يقارن بين جسدي الحسين وشبهه علي الأكبر (ع) في رباعية تحرق القلوب حيث يقول إنّ جسديهما لا يكمن حملهما بوسيلة واحدة:

جسدان يومَ الطفِّ ما حُملا سيوي بوسيلةٍ، وهما الحسينُ وشبُّه
فالسَّبَطُ يُحمَلُ في البواري شلوهُ وسليهُ برِداً أيّه حَمَلُهُ

(المصدر نفسه: ٢١٥)

ولا يكتفي الربيعي بالمقارنة بين الأشخاص والأجساد ويأتي بمقابلات طريفة أخرى فمثلاً يقارن بين صيحة إبليس في أحد وصوت جبريل في كربلاء حيث يقول:

خُلعت قلوبُ المسلمين وقد دعا إبليسُ أن قُتلَ النبيّ محمدُ
واليومَ فليقتضوا أسيّ لمّا دعا جبريلُ قد قتلَ الحسينُ السيّد!!

(المصدر نفسه: ٢٢١)

أما الإنشاء وخاصة الاستفهام فما يزال يستفيد منه الربيعي لبيان تحسّره:

لمن رأسٌ يشعُّ على السِنانِ بنصِّ الوحي يصدعُ عن بيان؟
فتسمعه نساها للرزّايا وللبشرى صراعٌ في الجنانِ

(المصدر نفسه)

٢.٢.٤ الرباعيات في عزّة الحسين (ع)

لا يكي الربيعي في رباعياته التي قالتها في العزة الحسيني إنما يفتخر ويباهي بما عنده وعند أصحابه من الشجاعة والمروءة والعزّة التي تزلزل ظهر الظلم والجور:

كلُّ عَضْبٍ فِي الضَّرْبِ يَلْفِي كَهَامَا حَيْثُ قَرَعُ الحُدُودِ قَدْ فَلَّتْهُ
غَيْرَ أَنَّ الحُسَيْنَ زَادَ مِضَاءً فَكَأَنَّ الخُطُوبَ قَدْ صَقَلْتَهُ

(المصدر نفسه: ٢١٧)

والحسين عضو من جدّه الرسول وعنده القوّة الإلهية:

لو شاءَ أَنْ يَأْتِيَ الحُسَيْنُ بَضْرِيَّةً تَقْضِي عَلَى الطَّاعِي يَزِيدَ وَحْشِدَهُ
أَسْمَعَتْ ضَرْبَةَ جَدِّهِ فِي وَقْتِهَا أَوْدَتْ بِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَجُنْدَهُ

(المصدر نفسه)

ويقول عن قدرة عزيمة الحسين (ع):

كُلُّ خُطْبٍ لاقَى الحُسَيْنُ كَفِيلُ أَنْ يَعُودَ الحُسَيْنُ مِنْهُ صَرِيْعَا
فَهُوَ لَوْ كَانَ مِثْلَنَا عِزْمَاتٍ فَلِمَاذَا هَانَتْ عَلَيْهِ جَمِيْعَا!

إذا تأملنا رباعياته التي قالها في العزّة الحسينية نرى أنّ الربيعي يُطوي المعنى الرئيس والمضموم الأهمّ في الشطر الأخير مما يدلّ على مدى تعرف الربيعي بمميزات الرباعي الفارسي.

٥. النتيجة

يتجلّى رثاء الحسين (ع) في شعر الربيعي عبر قصائده التقليدية ورباعيّاته البارعة، فهو في القصائد يسعى لو يبدأها ببدايات جميلة تمهد الطريق للدخول إلى موضوع القصيدة كما يستفيد من أسلوب المقابلة والمقارنة في القصيدة، الأسلوب الذي أخذه من القرآن الحكيم وله تشابيه واستعارات بديعة وأحياناً نرى الربيعي يميل إلى محاكاة قصائد كبار الشعراء ككعب بن زهير والبوصيري لكنّ هذه المحاكاة لا تتجاوز البحر والقافية إلى المعاني. هذا ويراعي الربيعي موسيقى شعره ويبدل جهده في تلاؤم موسيقى الألفاظ مع المعاني، والبحور مع الموضوع والقافية مع الفضاء الموسيقي.

أمّا رباعيّاته فهي نموذج للرباعيّات البديعة في اللغة العربية والربيعي كان يفتن إلى ظرائف هذا الفنّ الشعري ودائماً يسعى لويطوي المعنى الرئيس في الشطر الأخير، هذا

ورباعياته تنقسم إلى قسمين قسم يتناول فيه الشاعر الرثاء الحسيني في أسلوب تقابلي ممزوج بنوع من أنواع البديع مثل الجناس والجمع والتفريق وقسم يتكلم الشاعر فيه عن العزة الحسينية وإبائه في أسلوب جميل بارع.

المصادر

- موسى باشا، عمر (١٣٨٨ هـ.ق). «الرباعيات أو الدوبيات»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤٣، الرقم ١١٤.
- بحر العلوم، سيد محمد مهدي (١٣٧٦ ش). شرح مرثي سيد بحر العلوم، ترجمة شيخ رحمة الله كرماني، تحقيق: حسين درگاهي، تهران: اسوه.
- البكار، يوسف حسين (٢٠٠١ م). الترجمة الأدبية، الإشكاليات والمزالق، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- البوصيري، (د.ت). البردة، بشرح الشيخ الإمام الباجوري، القاهرة: مكتبة الآداب.
- الفتنازي، سعدالدين، (١٤٢٨ هـ.ق). شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، قم: إسماعيليان.
- الربيعي، عبدالعظيم (١٣٧٨ هـ.ق). سياسة الحسين، تهران: الرشدية.
- الربيعي، عبدالعظيم (١٣٩٠ هـ.ق). ألفية الربيعي في الصرف والنحو، مكتبة النجف.
- الربيعي، عبدالعظيم (١٣٩٣ هـ.ق). الفرقة الوسطى، قم: المكتبة الحيدرية.
- الربيعي، عبدالعظيم (١٤١٩ هـ.ق). ديوان الربيعي في مدائح أهل البيت ومراثيهم، قم: أسرة الناظم.
- الربيعي، عبدالعظيم (١٤٢٠ هـ.ق). وفاة الرضا (ع)، قم: المكتبة الحيدرية.
- شفيعي كدكني، محمدرضا (١٣٧٠ ش). موسيقى شعر، تهران: نگاه.
- شمس قيس رازي (١٣٦٠ ش). المعجم في معايير أشعار العجم، تصحيح محمد قزويني، ومقابلته بمحمد مدرس رضوي، تهران: زوآر.
- شميسا، سيروس (١٣٦٣ ش). سير رباعي در شعر فارسي، تهران: آشتياني.
- كعب بن زهير (٢٠٠٨ م). ديوان كعب بن زهير، بيروت: المكتبة العصرية.
- كمال الدين، حازم، علي (١٩٩٩ م). دراسة في علم الأصوات، القاهرة: مكتبة الآداب.
- مرغني، جاسم عثمان (١٩٩٧ م). الأدب العربي المعاصر في إيران، بيروت: دارالعلم للملايين.
- ميرافضلي، سيد علي (١٣٧٦ ش). «پارسي و رباعي»، مجله شعر، العدد ٢١.

١٨ رثاء الحسين (ع) في شعر عبدالعظيم الربيعي (الآباداني)

وحيدان كاميار، تقى (١٣٧٤ ش). وزن وقافيه شعر فارسي، تهران: مركز نشر دانشگاهي.

المهاشمي، أحمد (١٤٢٥ هـ.ق). جواهر البلاغة، قم: منشورات حوزه علميه.

هوميرس (د.ت). الإلياذة، ترجمة: سليمان البستاني، القاهرة: لمّات عربيّة للترجمة والنشر.